

العصر الآشوري الحديث

يشمل العصر الآشوري الحديث ماتبقى من تاريخ الأشوريين السياسي حيث ينستد من بداية حكم ادد - نرارى الثاني عام ٩١١ ق . م وحتى نهاية كيسان الآشوريين السياسي عام ٦١٢ ق . م عندما سقطت مدينة نينوى على ايدي العبيوش الميدية والكلدانية المتحالفه. وقد وصل الأشوريون في عهدهم الحديث هذا قمة مجدهم وازدهارهم الحضاري وعندوا قوتهم العسكرية كما امتدت رقعة امبراطوريتهم الى اقصى ماوصلت اليه سلطة الآشوريين السياسيه فشملت معظم ارجاء الشرق الادنى القديم تقريبا ، من وادي النيل غربا حتى بلاد عيلام شرقا ومن آسيا الصغرى والمنطقة البابلية شمالا وحتى الخليج العربي جنوبا .

ولم يكن تعاظم قوة الآشوريين واتساع نفوذهم حدثا من الاحداث الفجائية او من نتائج الصدفة ، بل لابد ان كان هناك اسباب وعوامل عديدة لعبت دورها فادت الى هذه التتابع الباهرة والانتصارات الكثيرة التي حققها الأشوريون ، وكان من بين هذه العوامل عوامل داخلية وآخرى خارجية ومنها مايمكن معرفته واستنتاجه من متابعة تطور الاحداث ومنها مايتحقق خامضا لدينا .

السياسة الآشورية

من الباحثين المعذين من يعزى اسباب الانتصارات الآشورية العسكرية المتلاحقة وتعاظم قوتهم ونمو امبراطوريتهم وسيطرتها على معظم ارجاء الشرق الادنى القديم الى الاساليب العسكرية الهمجية والبربرية التي اتصف بها الحملات العسكرية الآشورية وتعطش وتلذذ الملوك الآشوريين العظام الى سفك الدماء وقتل اعدائهم واتباع ابشع الطرق والاساليب لتحقيق الانتصار بهدف السيطرة على البلدان والاقاليم ونهب خيراتها وتسخيرها لخدمة القصور الآشورية ، فخضعت ازاء هذه السياسة المرعبة مختلف شعوب الشرق الادنى القديم للنفوذ

لشرق الادنى القديم بصورة عامة وبلاد سوريا والعراق على وجه المخصوص
ويرى المحثون ان تاريخ هجرة الآراميين يقع ما بين القرن الرابع عشر والتانى
عشر ق . م ، غير ان اقدم ذكر لقبائل « الاختلامو » ، وهي من مجموعة
القبائل الآرامية ، ورد في عهد ادد - نارى الاول (حدود ١٣٠٠ ق . م) بينما
كان اول ذكر لقبائل آرام من عهد تجلاتبليز - الاول (في حدود ١١٠٠ ق . م) .
اضافة الى قبائل « السوتو » التي كانت تهتم بلاد بابل . وقد اشتهر من القبائل
الآرامية قبيلة « كلدو » التي حلت في بلاد بابل وكانت منذ القرن الحادى عشر
قبل الميلاد عدة مشيخات او دواليات واشتهر من بين زعمائها في القرن السابع قبل
الميلاد بلاصبر ، الذى تمكן من القضاء على الدولة الآشورية بالتعاون مع
الميديين واسس دولة بابل الحديثة .

وكان تأثير القبائل الآرامية على الدولة الآشورية في عهدها الوسيط كبيرا جدا
غير انها فقدت قوتها تحرّكها في او اخر هذا العصر ، اي بعد ١٠٠٠ ق . م فتكثّلت
القبائل في عدد من الدوليات الصغيرة ، منها دويلة آرام نهرايم ، ويعني اسمها
« آرام ما بين النهرين » اي بين الفرات والخابور ، ودويلة قدان آرام ومركزها
في حران ، وارام صوبا في الجنوب ، وارام معكا في سفوح جبال الشيخ ، وملكة
دمشق ودولة شمال (زنجرلي) .

وعلى الرغم من عدم استطاعة القبائل الآرامية تأسيس دولة موحدة كالدولة
الآشورية فقد كان لها تأثير ثقافي وحضارى واضح في الشرق الادنى القديم وكان
من بين تأثيراتها الواضحة انتشار اللغة الآرامية والخط الآرامي في مختلف اجزاء
الشرق الادنى القديم واستخدامهما في الشئون العامة والخاصة منذ عهد الدولة الفرثية
قصاعدا وظلت اللغة الآرامية والخط الآرامي منتشرآ في سوريا والعراق وفارس
حتى انتشار اللغة العربية والخط العربي في القرن السابع الميلادي .

الأشوري وقعت تحت حكم الآشوريين الرهيب . وقد يبدو هذا الرأي صحيحًا إذا أخذنا بالمصادر التي اعتمد عليها هؤلاء الباحثون دون تمحیص أو تقييم و درسنا التاريخ الأشوري بمعزل عن الأحداث والتطورات التي كانت تقع في مختلف أنحاء الشرق الأدنى ، غير أن آية دراسة علمية للتاريخ الأشوري السياسي والحضاري في القرون الاربعة الأخيرة من كيانهم السياسي تعتمد المصادر الأساسية بعد تقييمها وتدقيق ماورد فيها ومطابقتها مع ماورد فيها فاعلاً من أحداث ، وتأخذ بنظر الاعتبار الظروف التي كانت تمر بها الدولة الأشورية والخطر التي كانت تحبط بها من كل جانب تبين بوضوح خطأ هذا الرأي وعدم مطابقته لواقع السياسة الأشورية .

فاما المصادر التي اعتمدتها الباحثون المحدثون في تكوين هذا الرأي الخاطيء فيأتي في مقدمتها كتاب العهد القديم (التوراة) وما ورد فيه من أخبار عن الدولة الأشورية وسياستها تجاه المدن والدوليات السورية وكذلك النصوص المسماوية التي دونها الملوك الأشوريون انفسهم عن أخبار حملاتهم العسكرية إلى الجهات المختلفة والتي عرفت بالحوليات الملكية او النصوص التاريخية الملكية ، إضافة إلى المشاهد العسكرية الكثيرة التي صورها الملوك الأشوريون على الواح الرخام التي زينوا بها جدران قصورهم وأبنائهم العامة .

وكان دور كتاب العهد القديم (التوراة) ، الذي يقرره الكبير والصغر في مختلف أنحاء العالم المسيحي حتى الوقت الحاضر ، اثر كبير في تكوين هذا الانطباع الخاطئي عن طبيعة الآشوريين وطبيعة سياستهم تجاه البلدان المفتوحة . فالمعروف ان غالبية اسفار العهد القديم دونت في القرن السادس والخامس قبل الميلاد اي اثناء وبعد السبي البابلي لليهود وبعد ان زالت الدولة الأشورية من بعد قضائها النهائي على مملكة اسرائيل ومن بعد ان قضت الدولة البابلية الحديثة في عهد ملكها نبوخذ نصر على مملكة يهودا وسبت معظم سكانها إلى بلاد بابل . وطبعي كان كتاب التوراة من اليهود من اشد العاقدين على الآشوريين والبابليين وأكثرهم

كرها لهم ، فكانت كتاباتهم تظاهر هذا الحقد الدفين والكرة الشديدة للأشوريين والبابليين بصورة خاصة وللعالم غير اليهودي بصورة عامة . وقد حاول كتاب التوراة أن يظهر و الآشوريين بمظهر القساوة والطغاة الفاتحين المتعطشين لسفك الدماء ونسوا او تناسوا الظلم الحقيقي والتلذذ الصريح الذى كان يبديه ملوك مملكة اسرائيل ويهدوا وانيائهم في قتل و تعذيب الاسرى والآمنين من غير اليهود كما جاء ذلك نصا في بعض اسفار العهد القديم .

وقد اضاف الكتاب المحدثون الى ما جاء في اسفار العهد القديم وزادوا فيه نظرا لان الكتاب الاولى عن تاريخ العراق القديم كانوا اما من الاوربيين اليهود او الاوربيين المتأثرين بالدعایات الصهيونية الى حد تصديق ما كتبه كتاب العهد القديم .

اما النصوص المسماوية الملكية والشاهد العسكرية المocrرة على المتحفot الآشورية فقد ساهمت هي الانخرى في تكوين هذا الانقطاع الخاطئ وتركيزه لدى الكثير من الباحثين باعتباره مصدرأ لا يرقى اليه الشك طالما انه صادر عن الآشوريين انفسهم . غير ان معرفة الاهداف التي دونت من اجلها النصوص ونحت الشاهد يجعل الاعتماد عليها كمصدر اساس لدراسة السياسة الآشورية الخارجية امرا غير مقبول . فالمعروف ان الملوك الآشوريين اعتادوا ، كاسلافهم الملوك العراقيين الذين سبقوهم ، تدوين اخبارهم ومنجزاتهم الحربية وال عمرانية على الواح خاصة بغية وضعها في المعابد والقصور واما تمثال الاله القومي لتكون بمثابة تقرير ملكي مقدم الى الاله القومي للبلاد لاطلاع الالله على منجزات الملك العسكرية وال عمرانية التي تمت خلال فترة معينة تنفيذا لرغبة الالله . ومن الطبيعي ان يبالغ الملوك في وصف انجازاتهم وانتصاراتهم ويفعلوا خسائرهم ، وهذا ما يمكن اثباته من مقارنة بعض النصوص الآشورية مع بعضها ومع النصوص المسماوية او الاخبار التي تمثل وجهة النظر المعاكسة للآشوريين . وقد غالى بعض الملوك في وصف الدمار والخراب الذي الحقته جيوشهم بالاعداء وبالاساليب الوحشية التي اتبعوها

في قمع التمردات والثورات ضد حكمهم كما غالوا في ذكر كمية الغنائم والاسلاب التي حصلوا عليها . وما يقال عن هذه النصوص ينطبق على النصوص المسماوية الاخرى التي كانت تدون على المنحوتات الآشورية الى جانب المشاهد العسكرية المختلفة التي تظهر للناس جميعا ، من آشوريين وغيرهم ، قوة الملك الملك وقوته وقدرته على قمع الثورات والتمردات وبطشه بكل من يحاول النيل من سلطنته . وطبعي ان يبالغ في هذه النصوص ايضا لتكون وسيلة من وسائل الدعاية والاعلام التي اتبعها الملوك آنذاك قبل انها الوسيلة الوحيدة في تلك العصور . وهكذا نجد ان المصادر التي اعتمدتها المؤرخون المحدثون لا تعطي الصورة الحقيقة والصحيحة للسياسة الآشورية وواقع الاحاديث التي حصلت خلال عهد ازدهارهم وقوتهم (١) :

ومع هذا ، فان ذلك لا يعني أن الآشوريين لم يكونوا قوما اشداء على الاعداء قساة ضد المنمردين والعصاة وضد كل من يحاول النيل من سيادتهم ويعكر امن بلادهم : غير انهم لم يتصرفوا بالظلم والطغيان والبربرية والهمجية ، وبين القسوة في قمع التمرد والعصيان وبين الظلم والطغيان فرق كبير ، وسيوضح لنا من استعراض الظروف التي كانت تمر بالشرق الادنى القديم ان السياسة الآشورية كانت السياسة الناجحة والصحيحة لضمان سيادة الدولة الآشورية وامنها ورفاهيتها وازدهارها الحضاري ، وان الآشوريين لم يلجأوا الى القوة الا اذا كانت الحل الوحيد والوسيلة النهائية لحل المشاكل . كما ان سياستهم الخارجية وسياستهم في الاقاليم والبلدان المفتوحة اتصفوا بالاتزان والتعقل مقارنة مع سياسة الاقوام الاصغرى التي عاصرتهم وجاءت بعدهم وان حروبيهم ، رغم قساوتها ، لم تختلف عن حروب الاقوام الاصغرى ، كالحروب العيلامية والحبشية والمصرية وحروب التواليات السورية ودويلة اسرائيل ويهودا وحروب الفرس واليونان ، وانها لم

(١) انظر حول ذلك : وليد محمد صالح ، العلاقات السياسية للدولة الآشورية ببغداد ، ١٩٧٧ (رسالة ماجستير غير منشورة صفحة ١٢٦ وما بعدها).

تصل باى حال من الاحوال الى درجة القسوة التي اتصفت بها حروب القرن العشرين الميلادى ، وال الحرب هي الحرب دوما لها نتائجها المؤلمة والقاسية غير ان الامة تضطر احيانا ان تنهج سبيل الحرب لانتزاع حقوقها المغتصبة وتأمين سيادتها وضمان امنها واستقرارها . ولكن ما بال الاقوام الغازية التي اغتصبت الحقوق وسلبت الاوطان وشردت السكان وهي لا تزال تمعن في غيها وتشن الحروب والغارات لالشيء إلا لاقطاع المزيد من الاوطان واغتصاب المزيد من الحقوق وقتل وتعذيب وتشريد المزيد من السكان الآمنين ؟